ماذا بقي من مخطوطات بيوت الأصالة في عرش آث يعلى

أ.عبد الكريم بوعمامة
–جامعة تيزي وزو–

إن لبني يعلى أسماءا عديدة من العلماء والفقهاء، ورجال الفكر والإصلاح ومعلمي القرآن، فهذه البقعة المباركة التي أنعم الله عليها بنعمة العلم والمعرفة، وأسبغ عليها نعمه ظاهرة وباطنة، اتخذها أولياء الله الصالحون الأولون والعلماء المؤهلون، موئلا وملجأ لهم للإستقرار والتعليم، إذ زرعوا العلم والمعرفة، وبمثل هؤلاء الأقطاب، كان القرآن في هذه المنطقة محفوظا في الصدور، ومحفوظا في السطور بما ترسمه أقلام الطلبة، وقد سار الخلف على درب السلف، فكان القرآن والعلوم الشرعية والأدبية قي قرى بني يعلى في القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرون وإلى يومنا هذا، ينبغ من صدور أبنائها كينابيع جبالها، ويعتمد أبناء هذه المنطقة بالخصوص، على منهج التعليم الإسلامي، من تحفيظ القرآن، وتدريس العلوم الشرعية والأدبية، والأخلاق الفاضلة، لهم أسس علمية متينة توازي مستوى طلاب الجامعات إن لم تكن أكثر، وهذا يعود أساسا للحصانة الدينية التي يتمتع بها الطالب والمعلم في بيئته، والإلتزام الذي يلتزم به لتلقي العلم بشغف فكانوا خير خلف لخير سلف.

وعندما احتلت الجزائر ودخل الجنرال «راندون» إلى عرش بني يعلى سنة 1847م بعد مقاومة مستميتة خاضها اليعلاويون بقيادة الشريف سي موسى اليعلاوي، الذي شيد زاوية بقرية «ثقموين» قرب دار الحاج، وتمت السيطرة الكاملة للفرنسيين على المنطقة، كان أول شيئ امتدت يد الغدر والغزاة إليه هو الإستيلاء على الكتب

والمخطوطات والوثائق الهامة، إذ يقول «شارل فيرو» في مقال له تحت عنوان: «غزو بجاية من طرف الإسبان»: (ماعرفته وكتبته عن بجاية يعود الفضل فيه للمخطوط الذي أهداني إياه العقيد بونفالي وجده عند طالب ببني يعلى «يعني إمام مسجد»، ويضيف بأن مخطوط أبو علي إبراهيم المريني، الموسوم بعنوان «الأخبار فيما مر على بجاية» قد زادنا توضيحا دقيقا حول غزو بجاية من طرف الإسبان)[1].

فالإرث الثقافي من المخطوطات والوثائق التاريخية لبني يعلى، تعرض للتخريب والإحراق والإتلاف ثلاث مرات: أحرق في سنة 1851 عندما قاد «الجنرال كامو» حملته على بني يعلى «وشهد شاهد من أهلها»، إذ يقول هذا الجنرال مايلي: « إنّ هزيمة الشريف بوبغلة كانت سهلة وشاملة حيث لم تواجهنا أي مقاومة تذكر. وفي يوم 4جوان كلفت فرقة بمعاقبة بني يعلى لإيوائهم ومساعدتهم للشريف بوبغلة، للنهب والحرق قبل أن تهدم عن آخرها، دون أن تطلق ولو رصاصة واحدة، غير أن باقي القرى الأخرى التابعة لهذه الكتلة قد نجت من طل ماوقع، ومن أعالي «قترات» أفادني مخبري أنه رأى دخانا أسود يتصاعد في السماء من قرية الشريعة والقرى المجاورة لها، مصحوبا بقطع من أوراق المخطوطات تتطاير في السماء»[2].

ثم جاءت انتفاضة 1871 لتعيد الأحداث إلى الواجهة من جديد حيث اصطدم اليعلاويون بعبثية الفرنسيين فثاروا مرة أخرى ضدهم وضد عملائهم تعضيدا للباشا آغا المقراني وأخيه بومزراق، وكانت النتيجة —بعد هزيمة المقرانيين– أن فرضت على بني يعلى غرامة قدرها 217274 فرنكا فرنسيا يدفع مقابلها بالفضة[3]، وتم إتلاف المخزون الثقافي اليعلاوي من المخطوطات والوثائق الأخرى من طرف الجيش الفرنسي، الذي أضرم النار مرة ثانية في قرية الشريعة، وشرد أبناءها وأتلف مؤنهم وأرزاقهم.

1)- شارل فيرو، المجلة الإفريقية رقم 12، سنة 1868، ص:245.

2) – Archives du gouvernement Général، liasse 2H 11، dossier n°25.

3)– Bulletin officiel du gouvernement général d'Alger – 1896، p 604، rapport et Arrêté du 21 avril 1896

وفي الثورة التحريرية، تم القضاء الكلي من طرف الجيش الفرنسي المتكالب على ماتبقى من الإرث الثقافي لبني يعلى، إذ لم تسلم أية قرية من الدمار والترحيل، وترك مالها من المخطوطات والوثائق، لقد تركنا نحن بيت الشيخ حميدة الملقبين «بوعمامة» في القرية خزانتان كبيرتان مملوءتان بالكتب والمخطوطات، و لم نستطع حملها أو إنقاذ ما يمكن إنقاذه، بكينا يومها عن إتلاف إرث أجدادنا، وفي قرية الشريعة ضاعت خزانة أولاد محجوبة الإرث الثقافي الكبير في هذه القرية، وقد أنقذ الأستاذ عبد الله بن محجوبة الملقب «مهجي» بعض الوثائق وهي الآن منشورة على الطاولات في صحن البيت لترميمها ومحاولة تصنيفها وإصلاحها، كما أتلفت خزانة بيت الشيخ السعيد بن عمر العبد اللاوي، الذي كان عضوا في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وفي قرية «ثيطست» أتلفت وثائق (ثمعمرت) «انب لخراط» التي هدمت وبقيت أطلالها شاهدة.

حاول الشيخ الطيب زيد الخير إنقاذ ما يمكن إنقاذه، وسلم بعض المخطوطات إلى وزارة الشؤون الدينية حسب ماورد في قوله، وفي قرى أحفاد الشيخ محند أوقري صاحب زاوية (الجامع أقري) لم يبق من إرثهم الثقافي إلا الترر اليسير جمعه الأستاذ الإعلامي عبد الحميد زهير، وهو من أحفاد الشيخ «محند أوقري»، وفي قرية قترات قاعدة بني يعلى ضاع مخزون المخطوطات والوثائق من بيوت الأصالة، كبيت «إث بصالح» مخزون مكتبة الشيخ السعيد صالحي عضو جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وهو غني عن التعريف «إث بلحاج الطيب» «إكثاف»...

كانت لآث يعلى الريادة في القبائل الصغرى ولها المرتبة الأولى بعلمائها ومعلميها، وقرائها ومقرئيها، وكانت كل قرية من قراها يكاد القرآن يكتب كله في يوم واحد، وتعتبر قريتا قترات والشريعة عبارة عن معاهد تستقطب إليها كل راغب في التعليم واكتساب المعارف، ناهيك عن مساجدكل من قرى «آث قري، اسومار، اولاد سيدي الجودي، لكدية، فوملال، كرجانة، أولاد سي خليفة» والتي يتخرج منها يوميا ثلاثة أو أربعة على الأقل ممن ختموا القرآن وحفظوه عن ظهر قلب. نحن دائما

نستشهد بأمجاد أجدادنا ونفتخر بها في حياتنا وتاريخنا لكننا اليوم نتساءل: أين مكانة عرش بني يعلى التي كانت تفتخر بها الأعراش المجاورة لها وتقصدها كلما جد جديد وطرأ طارئ...؟

بعض الجوانب التاريخية الحديثة لآث يعلى:

أ)– مقاومة أث يعلى للغزو الفرنسي: لقد شارك اليعلاويون في المقاومة وصد الغزو الفرنسي بكل ما أوتوا من قوة، وما بذلوا من نفس ونفيس وغال ورخيص، شاركوا في الهجمات التي قادها ابن عبد السلام المقراني بمعية الشريف سي موسى اليعلاوي، كما شاركوا في الأحداث التي وقعت بين سطيف وبرج بوعريريج ومجانة، ودافعوا عن منطقتهم والمناطق المجاورة من سنة 1840م إلى غاية 1847م، كما شاركوا في ثورة بوبغلة سنة 1851م آووه ونصروه ومن أجل ذلك حرّقت قرية الشريعة وشملت مقاومتهم جبال البيبان، وجبال بابور، وامتدت إلى سواحل جيجل.

ب)– دور آث يعلى في الحركة الإصلاحية: كانت هذه المنطقة من بين أهم المناطق في الجزائر التي أصبحت تتوفر على بيئة صالحة ومناخ ملائم لانتشار الفكر الإصلاحي والوطني، وقد ساهم أبناؤها في العصر الحديث في تكوين النواة الصلبة للحركة الإصلاحية الثقافية، التي حافظت على الثقافة العربية الإسلامية من الذوبان في الكيان الفرنسي، وتولت تربية النشء الجديد قبل أن تلتهمه الثقافة الفرنسية، قاد هذه الحركة الإصلاحية في المنطقة الشيخان: السعيد بن اعمرو العبد اللاوي من قرية الشريعة و الشيخ السعيد صالحي من قرية قتزات.

هذان الشيخان يعتبران من رجال الدعوة والإعلام، ونماذج ثقافية للإصلاح الديني والتربوي في منطقة بني يعلى، وعضوان رئيسيان بارزان في جمعية التربية والتعليم الإسلامي، التي أسسها الشيخ عبد الحميد بن باديس في 14جوان1934 عندما جاء إلى مدينة «بوقاعة»، وفي سنة 1936 قام الشيخ عبد الحميد بزيارة تفقدية

إلى قرية قترات بصفته رئيسا لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وعاد زائرا لها في 30 أوت 1937 للمرة الثانية بطلب من الشيخ السعيد صالحي عضو جمعية العلماء، كما زارها بعده الشيخ البشير الإبراهيمي أكثر من مرة.

ج)–دور آث يعلى في الحركة الوطنية: كان لشباب بني يعلى نشاط دؤوب في النضال السياسي في الحركة الوطنية لحزب الشعب، وبرز منهم مناضلون سياسيون وقياديون محنكون، وغدت قراها مدارس للمناضلين المنتمين للحركة الوطنية لحزب الشعب فاليعلاويون شربوا الوطنية من أثداء أمهاتهم اللائي ولدنهم، ومن ينابيع جبالهم، وقد زار منطقة بني يعلى أقطاب من الحركات الوطنية، منهم: المناضل فرحات عباس، ورائد الحركة الوطنية ميصالي الحاج وبالمناسبة زار قبر زميله في الحركة الوطنية المناضل كحال أرزقي، أول شهيد سقط من حزب الشعب (P.P.A) في 18 أفريل 1939 وكان العضد الأيمن لزعيم الحركة ومن الأعضاء المؤسسين لها.

د)– إسهامات المنطقة في الثورة التحريرية: ولما اندلعت الثورة التحريرية سنة 1954، كانت قرية بني يعلى منبعاً للقادة وملجأً للأبطال، وأول شهيد يسقط في ميدان الشرف في القبائل الصغرى يوم 19 أوت 1955، بجبل دلاقة ناحية بني ورثيلان وهو الشهيد «سالم أبوزيد» من قرية ثامّاست عرش بني يعلى، والذي دشن أول معركة في المنطقة وقدمت بلدية قترات وبلدية حربيل نخبة من أعز أبنائها البررة للثورة، فخاضوا المعركتين العسكرية والسياسية، من العسكريين من نالوا الشهادة في ميدان الشرف، وسجلت أسماؤهم بحروف من ذهب، في شوارع العاصمة ومؤسساتها، نذكر بعضا من هؤلاء الذين صنعوا التاريخ لهذه المنطقة بصفة خاصة، وللجزائر بصفة عامة، وكتبوه بدمائهم وبأطراف أناملهم المبتورة، وشرفوا عرش بني يعلى وهم:

الشيخ الربيع بوشامة، أرزقي كحال، ذبيح الشريف، الصالح بوحارة، دكار بوعلام، محمد زكال، خليفة بوخالفة، مليكة قايد، الشريف مدور....

هؤلاء معروفون على المستوى الوطني، بالإضافة إلى حوالي ستمئة (600) بين بلدية قنزات، وبلدية حربيل، وكذلك شخصيات وطنية من العيار الثقيل من هذه المنطقة، ساهمت في بناء الدولة الجزائرية، منهم:

اسماعيل حمداني، الشيخ يوسف يعلاوي، العقيد عبد المجيد أوشيش، عبد الكريم حرشاوي...

نتمنى أن يعود لبني يعلى من جديد نشاطهم الثقافي والتربوي وأن يتسنم أبناؤها فيما يسمى قديما المثلث الثقافي «بني يعلى، بني ورثلان»، بني عيدل، وأن يحافظ الخلف على إرثهم الثقافي من الإندثار والتبخر، والسير على خطى السلف.